العرب
السبت 2021/10/30
السنة 44 العدد 12225

بعد نوبل، هل تكون جائزة غونكور من نصيب كاتب أفريقي؟

«أكثر ذاكرات البشر سرية» رواية تصور حاضر أفريقيا وماضيها بين قارتين

الأفريقي متهم دائما (لوحة للفنان معتوق بوراوي)

في العام 1921 أسندت غونكور جائزتها لكاتب مارتينيكي هو روني ماران عن روايته "باتوالا"، فأثارت ضجة عارمة في الأوساط الثقافية والسياسية؛ أوّلا لأن الفائز أسود؛ وثانيا لأنّه انتقد الإمبراطورية الكولونيالية الفرنسية وممارساتها اللاإنسانية في أفريقيا، في أوج سطوتها. ورغم بروز عدّة كتاب أفارقة جيدين، لم تسند الجائزة إلا مرة واحدة لكاتبة من أصول أفريقية هي ماري ندياي، فهل تختار هذه المرة كاتبا أفريقيا بمناسبة مرور قرن على ذلك التتويج المثير للجدل؟

أبوبكر العيادي
كاتب تونسي

كلّ الدلائل تشير إلى إمكانية تتويج السنغالي محمد مبوغر سارْ عن روايته "أكثر ذاكرات البشر سرّيّة" بجائزة غونكور هذا العام، لاسيّما أنها اختيرت ضمن القائمات القصيرة لأهم الجوائز الأدبية الفرنسية لهذا العام، بما فيها غونكور.

والطريف أن منطلق هذه الرواية رواية أخرى "واجب العنف" فازت عام 1968 بجائزة رونودو، ثمّ اتّهم صاحبها المالي يامْبو أولوغيم (1940 – 2017) بالسرقة الأدبية، فتمّت مصادرتها لاحتوائها على جمل ومقاطع لكتاب معروفين، قال الكاتب إنه وضعها بين معقفين، ولكن الناشر "سُويْ" حذفها دون استشارته.

استعادة كاتب مظلوم

رغم سحب الرواية من المكتبات الفرنسية لمدة ثلاثين سنة، فإنها ظلت حاضرة في أذهان كل مهتم بالتاريخ الأفريقي، من مؤرخين وكتاب وباحثين، ذلك أنها تخالف التاريخ الأفريقي الرسمي، ولكن مؤلفها اختار الصمت والعزلة حتى وفاته، لما لقيه من الغرب، الذي صدّق حكاية السرقة، ومن الأفارقة الذين اعتبروه متماهيا مع الطرح الكولونيالي، بل إن سنغور نفسه اتّهمه بالخيانة، خيانة الشعوب الأفريقية، وتزوير تاريخها.

بطل الرواية ديبغان لاتير فاي، كاتب سنغالي شابّ، يعيش في باريس يكتشف عام 2018 كتابا أسطوريا صدر عام 1938 بعنوان "متاهة اللاإنساني"، لكاتب سنغالي هو أيضا يدعى تي سي إيليمان وُصف في البداية بالرامبو الزنجي، قبل أن ينقلب عليه النقاد ويتهموه بالانتحال، بدعوى أن كتابا بتلك القيمة لا يمكن أن يؤلفه كاتب زنجي، ما يضطر إيليمان هذا إلى الاعتكاف والصمت، قبل أن يختفي ويغيم ذكره منذ ذلك التاريخ.

ذلك الكتاب يبدأ بأسطورة ملك سفاح، جاء في الأساطير السنغالية أنه كان يحرق أعداءه ثم يأمر بأن يتحولوا إلى أشجار، ولكن حدث أن ضل ذلك الملك طريقه في الغابة، فألفى نفسه أمام ضحاياه الذين راحوا يتقاذفونه من جذع إلى جذع.

> محمد مبوغر سارْ يبني روايته على كتاب سبقها للمالي يامبو أولوغيم، لكن ذلك لا يقلل من شأنها، ولا من طاقتها التخييلية

من تلك الأسطورة يستوحي إيليمان مفهومه للماضي، ذلك الماضي الذي ينتظر بصبر وأناة في مفترق طرق المستقبل، حيث يفتح للإنسان الذي يحسب أنه فرّ من سجنه الحقيقي ذي الزنزانات الخمس: خلود المفقودين، ودوام المنسي، ومصير المذنب، ورفقة العزلة، ولعنة الحبّ المخلّصة.

وإيليمان يكاد يكون صورة من أولوغيم، فمسارهما واحد، من البلد المستعمَر الذي ولدا فيه إلى باريس حيث زاولا دراستهما بامتياز، وظهورهما المفاجئ بعمل حقق شهرتهما في البداية ثم كان سببا في تشويه سمعتهما، بغير وجه حق، وعودتهما إلى ديارهما مهزومَين، مكسورَي الخاطر، واعتزالهما الأدب والمحافل الثقافية.

غير أن رواية مبوغر سار تنحو منحى غير إعادة كتابة سيرة الكاتب المالي الراحل، إذ أوجد مؤلفَ "متاهة اللاإنساني" في مرحلة سابقة لأولوغيم بثلاثين عاما، أي قبل استقلال بلده وبعده، وجعل بطله الشّابّ لاتي رفاي يتنقل عبر أقطار ثلاثة هي أفريقيا وأوروبا وأميركا اللاتينية بحثا عن إيليمان، ومنح عمله سعة وطموحا يتجاوزان قضية أولوغيم.

متاهة اللاإنساني

تبدأ الرواية في باريس، في الوسط الأدبي تحديدا، عام 2010 وما تلاها، وترتد إلى ثلاثينات القرن الماضي، وتتواصل في السنغال زمن الاستعمار مع ذكر دور المحاربين السنغاليين في خوض المعارك الفرنسية وتنكّر فرنسا لذلك الدور، ثم في فرنسا زمن الاحتلال النازي، وتستمر في بوينس أيرس مع إرنستو صاباتو والبولندي المهاجر آنذاك فيتولد غمبروفيتش، لتختتم في داكار، حيث انتهى المطاف بذلك الكاتب الغريب، على غرار نهاية الكاتب المالي. رابط كل ذلك بحث السارد الذي يعدد أنماط السرد من لقاءات ومقولات وقصاصات صحف ويوميات ويضاعف الحكايات حول غايته، أي حياة تي سي إيلميان، ولكنه يحتفي من خلال ذلك بالخلق الأدبي.

> الرواية تستقرئ التاريخ وتسبر خلفياته وتبعاته طارحة وضع المبدع بين الكتابة والحياة محتفية بالأدب وسلطته التي لا تزول

رواية ممتعة، تصور حاضر أفريقيا وماضيها، وقراءة قارتين لتاريخ مشترك، فمن حكاية نص، استعرض مبوغر سارْ جانبا من تاريخ القرن الماضي، محللا أثر الاستعمار ثم الهجرة والمنفى على البشر، وهو إذ يسرد قضية "متاهة اللاإنساني" لا يروي حياة كاتب فقط، بل حيوات عدة أجيال تركت فيها المرحلة الكولونيالية آثارا لا تمّحي.

هذا البحث المضني عن كاتب يمكن قراءته كمغامرة لإشباع فضول أو إمساك بحقيقة، ولكنه يمكن أن يقرأ في المقام الأول كارتحال إلى الذات وعودة إلى الأصول، واستقراء لتاريخ وسبر لخلفياته وتبعاته، والرواية إلى ذلك طرح لوضع المبدع، الموزع بين الكتابة والحياة، واحتفاء بالأدب وسلطته التي لا تزول.

ولئن بنيت هذه الرواية على كتاب سبقها، ونعني به هنا رواية "واجب العنف" للمالي يامبو أولوغيم، فإن ذلك لا يقلل من شأنها، ولا من طاقتها التخييلية.

وعلى غرار ما قاله سارد بورخس في قصة "مقاربة معتصم" حيث في النص بحث عن نص آخر "من الطبيعي أن يَشرُف بكونه مستوحى من كتاب قديم"، فإن ربط هذه الرواية برواية أولوغيم يخدم نفس الغايات النبيلة.

فهل يتوَّج كاتب أفريقي آخر هذا العام، بعد فوز عبدالعزيز قرنح بنوبل، وهل سينجح هذا الكاتب السنغالي الشابّ محمد مبوغر سارْ في الفوز بغونكزر ليمحو خيبات سابقيه، الذين لم يتوج بعضهم في أحسن الحالات سوى بجائزة رونودو أو جائزة الأكاديمية الفرنسية؟ ذلك ما سنعرفه يوم الثالث من نوفمبر المقبل.

القراءة ليست شحنا للذاكرة وإنما هي فعل من أجل النسيان

ميلانو (إيطاليا) – يقر الكاتب والمفكر المغربي عبدالسلام بنعبدالعالي بأنه قارئ قبل أن يكون كاتبا وبعد أن يكتب، بينما يرفع رأسه وهو يقرأ، كما تحدث عن ذلك في كتابه "القراءة رافعة رأسها".

ويواصل الكاتب الحفر عميقا في فعل القراءة من زوايا غير مطروقة في كتابه الجديد بعنوان "قراءات من أجل النسيان".

ولا يختلف الكتاب الجديد عن إصرار بنعبدالعالي على فعل "القراءة الحية" هذه "القراءة التي لا تحترم النص ولا تخضع له". وهي ما تفتأ ترفع رأسها متوقفة، كما يقول فيلم إيطالي شهير، كل ذلك ليس إهمالا للنص وإنما من فرط ما يكتسح عملية القراءة من أفكار، وما يخالجها من تنبيهات، وما يخطر بباله من ترابطات.

ويدفعنا كتاب "قراءات من أجل النسيان"، الصادر أخيرا عن منشورات المتوسط – إيطاليا، إلى فعل النسيان وارتباطه بالقراءة، التي غالبا ما ترتبط بالتذكر، لكن الكاتب يدفعها إلى فعل النسيان وما ينتج عنه من توالد معارف في عمق القارئ الذي يخرج من دائرة التذكر والاختزان إلى القراءة الحيوية.

منذ السطور الأولى لكتابه الجديد يبدو بنعبدالعالي أنه يريد الكشف عن مراده من تأليف كتاب "قراءات من أجل النسيان"، ولكن سرعان ما يكتشف القارئ أن ما اعتقده كشفا ليس سوى حجب لذاك المراد. فنحن أمام كتاب يحول النسيان إلى عملية لإنتاج المعرفة.

يعود الكاتب إلى قصّة «فونيس أو الذاكرة» لبورخيس، وفيها يروي بورخيس حكاية شابٍّ فَقَدَ القدرة على النسيان. فعلى إثر سقوطه عن حصان غير مروَّض، لم يُصَبْ أرينيو فونيس بفقدان الذاكرة، وإنما بفقدان النسيان. ثم تدفعه المكابرة ليتظاهر بأن السقطة ليست فجيعة وإنما نعمة النعم «قبل ذلك المساء المُمطِر، حيث ألقاني الجوادُ الأدهمُ من على صَهوته، كنتُ مثل بقية البشر، فاقدَ البصيرة، أصمَّ بليدا، كنتُ شديدَ النسيان».

صار فونيس يَنظرُ إلى الأعوام التسعة عشر التي قضاها قبل الحادث على أنها سنوات ظلام «كنتُ أنظر من غير أن أرى، وأسمع من غير أن أفهم، كنتُ أكاد أنسى كلّ شيء». حين سقط من على الحصان «فَقَدَ وعيه، وعندما أفاق، كان الحاضر ثريًّا جدًّا، وناصعا لحَدٍّ لا يُطاق، وكذلك كانت أقدم ذكرياته وحتّى أقلّها شأنا".

ويرى الكاتب أنه بإشاراته المتكرِّرة إلى بعض التواريخ، يُصرُّ بورخيس على أن يذكّرنا بأن بطل حكايته ينتمي إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ذلك القرن الذي يسمّى «قرن التاريخ»، حيث دفعت «حُمّى التاريخ» التي يتحدّث عنها نيتشه، البعضَ إلى أنْ يتحوّل، مثل فونيس، إلى «آلة تخزين» سرعان ما ستتحوّل، بدورها، إلى قدرة جبّارة على «حفظ المعلومات وادِّخارها»، كي تجعل الإنسان غارقا في الجزئيات، عاجزا عن أخذ المسافة بينه وبين واقع تحوَّل إلى «ما لا نهاية له من النقط المتحرِّكة، والأخبار المتدفقة، والمعلومات الفيَّاضة».

في هذا الجو يضعنا بنعبدالعالي أمام أسئلة كثيرة تتعلق بعملية القراءة نفسها، بعلاقتنا مع ما نقرأ، وما هي القراءات التي ننساها أو نتناساها أو نتمنى نسيانها. ولكن هل فعلا لدينا قدرة على النسيان؟

ويقول الكاتب المغربي إنه "لا عجب أن يغرق 'فلاسفة الجامعات' في العصر الحديث في قراءة النّصوص وتأويلها، وأن تغدو الفلسفة تأويلا لتاريخ الفلسفة. غير أن انتقاء النّصوص والارتباط بها اختلف من فيلسوف لآخر. فمن هؤلاء من هو أستاذ أكثر منه فيلسوفا شأن ياسبرس وريكور، ومنهم من هو عكس ذلك. ولعل من يمثّل هذا الصّنف الثاني خير تمثيل هو بالضبط أحد تلامذة نيتشه، وأعني جيل دولوز".

ويضيف "عندما كان صاحب 'نيتشه والفلسفة' يشتغل على الفيلسوف، فليس من أجل تحصيل معارف وتكديس معلومات، ليس من أجل توفير احتياطي فكري، فكما يقول 'ليس لديّ احتياط فكر. ما أعرفه، أعرِفه بدلالة الحاجة التي يتطلّبها عمل أنجزه حالا. وإذا ما عدت إلى الأمر سنوات في ما بعد، يكون عليّ أن أعاود التّحصيل من جديد'. إنّها إذا قراءات في خضم إنتاج، قراءات من أجل خروج وانفصال، قراءات ليس من أجل شحن الذاكرة، وإنما من أجل النسيان".

> الكتاب يضعنا أمام أسئلة كثيرة تتعلق بالقراءة وعلاقتنا مع ما نقرأ وما هي القراءات التي ننساها أو نتناساها

باقتراح حازم في بداية الكتاب من بنعبدالعالي بأن ننسى النسيان، ليصحبنا بعدها إلى مكتبات الفلاسفة والاقتباسات، وتعلم الفلسفة، وثم إلى تقويض التاريخ، وإلى العلم المفكر، والتقنية، والكتابة، والحياة، والترجمة، والبطء، والمشي، واللغة. لنصل أخيرا إلى نسيانها وربما نسيان الكتاب كله.

ومرة أخرى، يفاجئنا بنعبدالعالي بكتابه الجديد، الذي لا يزال ينتصر للاختلاف في كلّ كتبه، حيث ينحاز إلى فكر الانفصال بدل فكر الاتصال الذي يظل ينسج على منوال سابق. هذا المفكر جعل الفلسفة فنا للعيش وشأنا يوميا، أخرجها من أسوار الجامعة وفتحها على الفرد والجماعة. هكذا تصبح الفلسفة عند بنعبدالعالي كتابة ونوعا من ممارسة الذات ضمن "جماليات الوجود". كاتب يترك الأجوبة جانبا ليطرح الأسئلة.

ويذكر أن عبدالسلام بنعبدالعالي كاتب ومترجم وأستاذ بكلية الآداب في جامعة الرباط، المغرب. من مؤلفاته "الفلسفة السياسية عند الفارابي"، "أسس الفكر الفلسفي المعاصر"، "حوار مع الفكر الفرنسي"، "القراءة رافعة رأسها"، "الكتابة بالقفز والوثب"، وغيرها.

كما قدم عددا من الترجمات منها "الكتابة والتناسخ" لعبدالفتاح كيليطو و"درس السيميولوجيا" لرولان بارت.

النسيان طريق القراءة لتصبح حياة (لوحة للفنان علي رضا درويش)